قصة نوح عليه السلام

مكث البشر بعد آدم قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر؛ فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا قد كان أولوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصح الناصحين.

ثم بعث الله فيهم نوحًا عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩] ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٢،٣،٤] فلما بادأهم بالأمر بالإخلاص لله وتسفيه آرائهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف:٦٠] ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧] ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧] وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكبارًا منهم واستنكافا على الحق وعلى الخلق، فبين لهم أنه ليس به ضلال، وإنما به تزول

الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعي لهم طورًا يزاحم فيه الرب فقال ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[هود: ٣١].

فلم يزل يدعوهم ليلا ونهارًا وسرًّا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ونفورًا وإعراضًا وتواصيًا منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير اللَّه والتمسك بها فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢١: ٢٣] فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه، وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] فأجاب اللَّه دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من اللَّه له هذه الصنعة التي امتن اللَّه بها على العباد، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات ما لا يعد ولا يحصى، وأخبره اللَّه بتحتم إغراقهم وأنه لا يخاطب ربه فإنهم ظالمون، وجعل يصنع الفلك، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم، وأوحى اللَّه إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنور أي جعلت الأرض كلها تتفجر عيونًا من

كل جانب حتى المواضع البعيدة عن الماء عادة، أمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها، والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها اللَّه مسخرة لمصالح البشر ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك، فلما أركب جميع من أمر بهم قال لهم: سموا اللَّه كلما جرت وكلما رست؛ لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف اللَّه، ولا تمام لها إلا باللَّه.

فحينئذ فجر اللَّه الأرض عيونًا، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئًا فشيئًا على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يمينًا وشمالا.

وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال فرآه مثل سائر قومه قد فر هاربًا من المياه الجارفة، فناداه نوح مترفقًا فقال ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢] فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة، فقال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود:٤٣] لم يخطر ببالهم أن المياه سترفع فوق رءوس الجبال، فقال له نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾[هود:٤٣] فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم

اللَّه، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ [هود:٤٣] فكان ذلك الابن من المغرقين.

فأغرق اللَّه جميع الكافرين ونجى نوحًا ومن معه أجمعين، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن من خالفه فإنه مبطل، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة.

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر اللَّه السماء أن تقلع عن الماء، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء، أي نقص شيئًا فشيئًا، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودي، وهو جبل شامخ معروف في نواحي الموصل.

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان، وحزن نوح على ابنه فقال مناديًا ربه مترقبًا متضرعًا يا ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾[هود:٤٥] أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين، فقال له ربه ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] أي الموعود بنجاتهم، لأن اللَّه قيد ذلك بقوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠] ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦] أي هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضا اللَّه تعالى فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ

بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٧، ٤٨] فهبط وبارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين؛ فكان أولاده: يافث ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله، وكان من أولي العزم من المرسلين، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة وهو أول الرسل إلى الناس، وهو الأب الثاني للبشر، ﷺ تسليما.

يستفاد من هذه القصة أمور:

منها: أن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩] ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحًا دعا قومه ليلا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل وحذرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبين البراهين.

ومنها : أن الشبه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين فإن الأقوال التي قالوها ولم يكن عندهم غيرها ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل؛ فقول قوم نوح ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧] تأمل جملها تجدها تمويهات دالة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة؛ فقولهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق؟ ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلا. وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[إبراهيم:١١] فمن الله على الرسل وخصهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسر عليهم هذه النعمة ويسهل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧] من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبر وتيه، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه.

وأيضا قولهم ﴿أَرَاذِلُنَا﴾إن أرادوا الفقر فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان باللَّه ورسله وطاعة اللَّه ورسله والانقياد للحق والسلامة من كل خصلة ذميمة؛ هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل أم الرذيلة بضده من ترك أفرض الفروض توحيد اللَّه وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق؟ هذا واللَّه أرذل الرذائل، ولكن القوم مباهتون فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا باللَّه العزيز الحميد.

وقولهم ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح لم يشاوروا ولم يتأنوا ويترووا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها. أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة.

وقولهم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[هود: ٢٧] هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه! لأنهم يخبرون عن أنفسهم وكلامهم يحتمل أنه

الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود:٢٧] معلوم أن الظن أكذب الحديث، ثم لو قالوا بل نعلمكم كاذبين. فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقي ريبا لأحد في بطلانها.

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام للّه تعالى في عبوديتهم للّه القاصرة وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[هود:٢٩] ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، واللّه تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

ومنها: أن القدح في نيات المؤمنين وفيما منَّ اللّه عليهم به من الفضائل والتألي على اللّه أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على اللّه وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾[هود:٣١].

ومنها: أنه ينبغي الاستعانة باللّه وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد اللّه والإكثار من ذكره

عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدور لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون: ٢٩] وفي ذلك كله من استصحاب ذكر اللَّه، ومن القوة على الحركات والسكنات ومن قوة الثقة باللَّه ومن نزول بركة اللَّه - التي هي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها - ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها: أن تقوى اللَّه والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان، وإن كان لذلك أيضًا أسباب أخر. وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها.

ومنها: أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع اللَّه بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد اللَّه إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو مناف للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قصة هود عليه السلام

بعث اللَّه هودًا عليه السلام إلى قومه عاد الأولى المقيمين بالأحقاف- من رمال حضرموت- لما كثر شرهم وتجبروا على عباد اللَّه وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] مع شركهم باللَّه وتكذيبهم لرسل اللَّه، فأرسله اللَّه إليهم يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده وينهاهم عن الشرك والتجبر على العباد، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكرهم ما أنعم اللَّه عليهم به من خير الدنيا والبسطة في الرزق والقوة، فردوا دعوته وتكبروا عن إجابته وقالوا ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[هود:٥٣] وهم كاذبون في هذا الزعم؛ فإنه ما من نبي إلا أعطاه اللَّه من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند اللَّه لأحكامه وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره، وأمره بكل خير ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له، ويصدقه من بعده ويشهد له.

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد خوفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو سوء، فتحداهم علنًا وقال لهم جهارًا: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤،٥٥،٥٦] فلم يصلوا إليه بسوء.

فأي آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الأعداء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق، فلما انتهى طغيانهم تولى عنهم وحذرهم نزول العذاب، فجاءهم العذاب معترضًا في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] بقولكم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] تمر عليه ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٧] ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] فبعدما كانت الدنيا لهم ضاحكة، والعز بليغ، ومطالب الحياة متوفرة، وقد خضع لهم من حولهم من الأقطار والقبائل، إذ أرسل الله إليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات ليذيقهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾[هود: ٦٠].

ونجى الله هودًا ومن معه من المؤمنين، إن في ذلك لآية على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وآية على إبطال الشرك، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

فوائد من هذه القصة :

فيها ما تقدم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل، ومنها : أن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما

حولها؛ لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير والله تعالى صرف فيه التذكيرات تصريفًا نافعًا، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلا، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة ورد وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولا، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلا بعد جيل، بل ما نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا لا ريب أن نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر، ولا نعرف لغاتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقًّا، لكن الحق يتفاوت، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، وأشار البارئ إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧] أي نوعناها بكل فن ونوع ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] أي ليكون أقرب لحصول الفائدة.

ومنها: أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية كما قال الله في قصة عاد وإنكار هود عليهم، قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية:

إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما أن تكون البنايات حصونًا واقية لشرور الأعداء، وثغورًا تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل اللَّه، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد اللَّه وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره اللَّه على عاد وغيرهم.

ومنها: أن العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغًا هائلا، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان باللَّه ورسله.

وأما الجاحد لآيات اللَّه المكذب لرسل اللَّه فإنه وإن استدرج في الحياة وأمهل فإن عاقبته وخيمة، وسمعه وبصره وعقله لا يغني عنه شيئًا إذا جاء أمر اللَّه، كما قال عن عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦] وفي الآية الأخرى ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١].

قصة صالح عليه السلام

كانت ثمود- وهي عاد الثانية- يسكنون في الحجر وما حولها، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل حروث وزروع، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصورًا مزخرفة، ومن الجبال بيوتًا منحوتة متقنة، فبطروا النعم وكفروها، وعبدوا غير اللَّه، فأرسل اللَّه إليهم أخاهم صالحًا من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحسبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى اللَّه وإلى إخلاص الدين له، وترك ما كانوا يعبدون من دونه، وذكرهم بنعم اللَّه وبأيامه بالأمم المجاورة لهم، فلم يتبعه إلا القليل.

وحين ذكرهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد اللَّه اشمأزوا ونفروا واستكبروا و﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾[هود: ٦٢] أي قد كنا قد تخايلنا فيك أن تفضلنا جميعًا لكمالك وكمال أخلاقك وآدابك الطيبة.

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال، فما نزله عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد، وإلى السعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين، وهم كانوا أضل منهم، ثم أقام لهم بينة عظيمة وآية وبرهانًا ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال: هذه ناقة اللَّه التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم فذروها تأكل في أرض اللَّه على اللَّه رزقها ولكم نفعها ترد الماء يومًا فترد القبيلة

بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيته، ثم تردون أنتم في اليوم الثاني، فمكثت على هذا ما شاء اللَّه.

وكان في مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يصدون عن سبيل اللَّه ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق، فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلسًا عامًّا ليتفقوا على عقر الناقة، فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة، ولهذا قال اللَّه تعالى ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾[الشمس:١٢] أي بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها، وهم جميعهم راضون بل آمرون، فعقرها، فكان هذا العقر مؤذنًا بهلاك القبيلة بأسرها.

فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظرًا فظيعًا علم أن العذاب قد تحتم لا محالة؛ لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم. فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾[هود:٦٥] ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم، ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة على قتل نبيهم صالح، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة، وكتموا أمرهم خشية من منع أهل بيته؛ لأنه في بيت عز وشرف، وقالوا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾[النمل:٤٩] ثم إذا ظن بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه إننا ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[النمل:٤٩] فدبروا هذا المكر العظيم، ولكنهم يمكرون ويمكر اللَّه لنبيه صالح. فحين كمنوا في أصل

جبل لينظروا الفرصة في صالح، بدأ اللَّه بعقوبتهم، فكانوا سلفا مقدما لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل اللَّه صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين، ونجى اللَّه صالحا ومن معه من المؤمنين، وتولى عنهم وقال ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

فوائد تتعلق بهذه القصة:

ومنها: أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأن من كذب واحدًا منهم فقد كذب الجميع لأنه يكذب الحق الذي جاء به كل واحد منهم؛ ولهذا يقول في كل قصة: كذبت قوم نوح المرسلين، كذبت عاد المرسلين، كذبت ثمود المرسلين.

ومنها: أن عقوبات اللَّه للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ولكن تحتم الإهلاك عند تناهي الشرور، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تناهي إجرامهم؛ لأن اللَّه تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومنها: أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن

نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] وقالت جميع الأمم المكذبة رادين لدعوة الرسل ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣] وهذا سبيل لا يزال معمورًا بالسالكين من أهل الباطل نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل اللَّه، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

* * *

قصة إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

قد ذكر اللَّه في كتابه سيرة وأخبارًا كثيرة من سيرة إبراهيم فيها لنا الأسوة بالأنبياء عمومًا، وبه على وجه الخصوص؛ فإن اللَّه أمر نبينا وأمرنا باتباع ملته، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية، فقد آتاه اللَّه رشده وعلمه الحكمة منذ كان صغيرًا، وأراه ملكوت السموات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقينًا وعلمًا وقوة في دين اللَّه ورحمة بالعباد.

وكان قد بعثه اللَّه إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخبث الطوائف وأعظمهم ضررًا على الخلق، فدعاهم بطرق شتى، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التي منها الشمس والقمر، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل، قال لهم ناظرًا ومناظرًا: هلم يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٦] والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة:

منها: أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حجته، وليقم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء:٦٢] فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣] ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام:٧٦] أي: غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] فإن من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغيبة، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهًا، ثم انتقل إلى القمر، فلما رآه بازغًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧] يريهم صلوات اللَّه وسلامه عليه، وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم، لكن لا على وجه التقليد، بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر، فالآن وقد أفلت، وتبين بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلهيتها، فأنا إلى الآن لم يستقر لي قرار على رب وإله عظيم، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨].

قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر، فإن جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ [الأنعام: ٧٨] وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطل الباطل.

فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام ووجه عليهم الحجة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] أي: ظاهري وباطني ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فهذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعين أن يقصد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق

العبادة لأجلها، فجعلوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عبدها وتضر من تركها أو قدح فيها، فقال لهم مبينًا لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

أجاب الله هذا الاستفهام جوابًا يعم هذه القصة وغيرها في كل وقت فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة وعجزوا عن نصر باطلهم، ولكنهم صمموا على الإقامة على ما هم عليه، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون نهيا عاما وخاصا، وأخص من دعاه أبوه آزر؛ فإنه دعاه بعدة طرق نافعة، ولكن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فمن جملة مقالاته لأبيه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٢، ٤٣] انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب لم يقل لأبيه إنك جاهل لئلا ينفر من الكلام الخشن، بل قال له هذا القول: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤٣، ٤٤، ٤٥] فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد، ولكنه مع ذلك قال له أبوه ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦] هذا وإبراهيم لم يغضب ولم يقابل أباه ببعض ما قال، بل قابل هذه الإساءة الكبرى بالإحسان فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧] أي: لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة، ومع ذلك فلست بآيس من هدايتك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] أي: برًّا رحيمًا قد عودني لطفه وأجراني على عوائده الجميلة ولم يزل لدعائي مجيبًا.

فلم يزل إبراهيم مع قومه في دعوة وجدال، وقد أفحمهم وكسر جميع حججهم وشبههم، فأراد ﷺ أن يقاومهم بأعظم الحجج وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقدرتهم وقوتهم، غير هائب ولا وجل، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم، فنظر نظرة في النجوم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]؛ لأنه خشي إن تخلف لغير هذه الوسيلة لم يدرك مطلوبه؛ لأنه تظاهر بعداوتها والنهي الأكيد عنها وجهاد أهلها.

فلما برزوا جميعًا إلى الصحراء كر راجعًا إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذًا كلها إلا صنمًا كبيرًا أبقى عليه ليلزمهم بالحجة فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابة ومحبة، فرأوا فيها أفظع منظر رآه أهلها فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا

فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠] أي: يعيبها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فلما تحققوا أنه الذي كسرها قالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] أي: بحضرة الخلق العظيم وبخوه أشد التوبيخ ثم نكلوا به، وهذا الذي أراد إبراهيم، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم، فلما جمع الناس وحضروا، وحضر إبراهيم قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣] مشيرًا إلى الصنم الذي سلم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جمادًا معروفًا أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل، وإما أن يقولوا نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها، وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الأخير، قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال.

فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥] أي: ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتًا قصيرًا ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي ترسخت في قلوبهم وصارت صفات ملازمة، إن وجد ما ينافيها، فإنه عارض يعرض ثم يزول ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فحينئذ وبخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رءوس الأشهاد، فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦،٦٧] فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء، فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا إلى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨] فأوقدوا نارًا عظيمة جدًّا فألقوه بها، فقال وهو في تلك الحال: حسبي اللَّه ونعم الوكيل، فقال اللَّه للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فلم تضره بشيء، وأرادوا به كيدا لينصروا آلهتهم ويقيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالا عليهم، وكان انتصارهم لآلهتهم نصرًا عظيمًا عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم.

وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرءوسين حتى أن ملكهم حاج إبراهيم في ربه بغيًا وطغيانًا، أن آتاه اللَّه الملك فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فألزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

* * *

فصل

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجرًا وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية، وفي أثناء مدة إقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجته سارة، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق، فلما رآها ملك مصر وكان جبارًا عنيدًا لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها، فدعت اللَّه عليه، فكاد أن يموت ثم أطلق ثم عاد ثانية، وكلما أرادها دعت عليه فصرع، ثم دعت له فأطلق، فكفاها اللَّه شره، ووهب لها هاجر جارية قبطية، وكانت سارة عاقرًا منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لإبراهيم ليتسررها لعل اللَّه يرزقه منها ولدًا، فأتت هاجر بإسماعيل على كبر إبراهيم ففرح به فرحًا شديدًا ولكن سارة رضي اللَّه عنها أدركتها الغيرة فحلفت أن لا يساكنها بها، وذلك لما يريده اللَّه.

وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضع البيت الحرام، وإلا فهو متقرر عنده ذلك ﷺ فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهي في ذلك الوقت ليس فيها ساكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر ووضعهما عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما.

فلما كان في الثنية بحيث يشرف عليهما، دعا اللَّه تعالى فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧] إلى آخر الدعاء، ثم استسلمت لأمر اللَّه

وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا فعطشت ثم عطش ولدها فجعل يتلوى من العطش، ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحدًا أو تجد مغيثًا، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا وتطلعت فلم تر أحدًا ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت فلم تر أحدًا، ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة باللَّه لها ولابنها، وهي تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصرها ابنها، والفرج مع الكرب، والعسر يتبعه اليسر، فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء، فاشتد فرح أم إسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها وحمدت اللَّه على هذه النعمة الكبرى، وحوطت على الماء لئلا يسيح.

قال النبي ﷺ: «**رحم اللَّه أم إسماعيل لو تركت ماء زمزم** - أي لم تحوطه - **لكانت زمزم عينًا معينا**»[1]. ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

وشب إسماعيل شبابًا حسنًا وأعجب القبيلة بأخلاقه وعلو همته وكماله، فلما بلغ تزوج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضي اللَّه عنها وجاء إبراهيم بغيبة إسماعيل يتصيد فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

(١) رواه البخاري.

ورجع من فوره لحكمة أرادها اللَّه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا. فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته. وسألنا عن عيشنا فأخبرته أننا في شدة، وإنه يقرأ عليك السلام ويقول لك: غير عتبة بابك. فقال: ذاك أبي وأنت العتبة الحقي بأهلك.

ثم تزوج إسماعيل غيرها. ثم جاء إبراهيم مرة أخرى وإسماعيل أيضًا في الصيد، فدخل على امرأته فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير. وكانت امرأة طيبة شاكرة للَّه وشاكرة لزوجها، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يثبت عتبة بابه، ثم رجع أيضا من فوره قبل مواجهة إسماعيل لحكمة أرادها اللَّه تعالى، فلما رجع إسماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت جاءنا شيخ بهذا الوصف، فقال: هل قال لكم من شيء؟ فقالت سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته أنا في نعمة وأثنيت على اللَّه فقال: فما قال؟ قالت: هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. فقال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يبري نبلا عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق، فقال: يا إسماعيل إن اللَّه أمرني أن أبني هاهنا بيتًا يكون معبدًا للخلق إلى يوم القيامة، قال: سأعينك على ذلك، فجعلا يرفعان القواعد من البيت، إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩] فلما تم بنيانه وتم للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يفدون إلى هذا البيت من كل فج عميق ليشهدوا منافع دنياهم وأخراهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاؤهم.

وفي هذه الأثناء حين تمكن حب إسماعيل من قلبه وأراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقديم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة فأمره في المنام أن يذبح إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله. فقال لإسماعيل: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٢، ١٠٣] أي خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] نزل الفرج من الرحمن الرحيم ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لهما الأجر والثواب، وحصل لهما الشرف والقرب والزلفى من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز. قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧] وأي ذبح أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يشبهها عبادة، وصار سنة في عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩].

فصل

ثم إن اللَّه أتم النعمة على إبراهيم ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب فحين أرسل اللَّه لوطًا إلى قومه وتمردوا عليه وحتم اللَّه عقوبتهم، وكان لوط ﷺ تلميذًا لإبراهيم، ولإبراهيم عليه حقوق كثيرة، فمرت الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط بإبراهيم بصورة آدميين، فلما دخلوا عليه وسلموا رد عليهم السلام، بادرهم بالضيافة، وكان اللَّه قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم، وكان بيته مأوى للأضياف، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم، فجاء بعجل سمين محنوذ مشوي على الرضف[1] فقربه إليهم فقال ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] إذ ظن أنهم لصوص ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

وكانت سارة قائمة في خدمتهم، وبشروه بغلام عليم، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومترددة ومتحيرة وقالت ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقبل ذلك كنت عقيمًا، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، فبشراهما بإسحاق وأنه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه. ولهذا حمد اللَّه إبراهيم على تمام نعمته وقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

(١) الرضف: الحجارة التي حميت بالشمس أو النار.

فصل

فيما في قصة الخليل من فوائد

ليعلم أن جميع ما قصه اللَّه علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمرًا خاصًا قال تعالى ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي الزموها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه؛ فإن اتباعنا إياه من ديننا، ولهذا لما كان هذا أمرًا عامًا لأحواله كلها استثنى اللَّه حالة من أحواله فقال ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي فلا تقتدوا به في الحال بالاستغفار للمشركين؛ فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه.

ومنها: أن اللَّه اتخذه خليلا، والخلة أعلى درجات المحبة، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلين إبراهيم ومحمد صلى اللَّه عليهما وسلم.

ومنها: ما أكرمه اللَّه به من الكرامات المتنوعة، جعل في ذريته النبوة والكتاب وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو إسرائيل واختاره اللَّه لبناء بيته الذي هو أشرف بيت وأول بيت وضع

للناس ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس، وملأ بذكره ما بين الخافقين وامتلأت قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه.

ومنها: أن اللَّه رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج، قال جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣] ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومنها: أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها أن أجره قد وجب على اللَّه، كما قال اللَّه ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره، وكما ذكره اللَّه في قصة الذبح، وأن اللَّه أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما للَّه وأذعنا لأمره ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

ومنها: ما في قصصه من آداب المناظرة وطرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصم الألد إلى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين.

ومنها: أن من نعمة اللَّه على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد اللَّه ويدعو اللَّه لذريته كما فعل الخليل ﷺ في قوله:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] إلى آخر الدعاء، وقال جل ذكره في الثناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذريته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

ومنها: أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمان بالله ورسله، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل دينية، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ومنها: الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية تعظيما لله وإعانة وتنشيطًا للمتعبدين فيه ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

ومنها: أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب، وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

ومنها : أن العامل كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في إيقاعه على أكمل الوجوه فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

ومنها : أن الجمع بين الدعاء للّه بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء اللّه، وكذلك السعي في تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذي خلق له الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنها : ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها، فإن اللّه أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون، يعني أنهم كرماء على اللّه، وأيضًا إبراهيم أكرمهم بضيافته قولا وفعلا، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتى بأطيب ماله عجل حنيذ سمين وقربه إليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى محل آخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

ومنها : مشروعية السلام وأن المبتدئ فيه هو الداخل وهو الماشي، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله: ﴿قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] أي لا أعرفكم فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قوله أنكرتكم ونحوه.

ومنها : الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولى شئون بيته حازمين مستعدين لكل ما يراد منهم من الشئون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادر إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضرًا لا يحوج إلا إلى تقديمه.

ومنها : أن إتيان الولد والبشارة به من سارة وهي عجوز عقيم يعد معجزة لإبراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبي وكرامة ولي، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى، وبشارتهم بيحيى لزكريا وزوجته، وكون زكريا جعل اللَّه آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام، وهو سوي لا آفة فيه إلا بالرمز والإشارة، وكل هذا وما أشبهه من آيات اللَّه، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب. فسبحان من هو على كل شيء قدير.

ومنها : ثناء اللَّه على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم، وقد قال ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩] والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبر والكرم، سليم من الشبهات القادحة في العلم واليقين ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملآن بالتوحيد والإيمان والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية اللَّه وفي نفع عباد اللَّه.

ومنها : ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩] يتبعها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات: ٨٠] فوعد البارئ أن كل محسن في عبادته محسن إلى عباده أن اللَّه يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثواب عاجل وآجل، وهو من البشرى في الحياة الدنيا ومن علامات السعادة.

* * *

قصة لوط عليه السلام

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة إبراهيم؛ لأنه تلميذه وقد تعلم من إبراهيم، وكان له بمنزلة الابن، فنبأه اللَّه بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين، وكانوا مع شركهم باللَّه يلوطون بالذكور، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء، فدعاهم إلى عبادة اللَّه وحده وحذرهم من هذه الفاحشة، فلم يزدادوا إلا عتوًّا وتماديًا فيما هم فيه، ولما أراد اللَّه هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فمروا بطريقهم على إبراهيم وأخبروه بذلك، فجعل إبراهيم يجادل في إهلاكهم - وكان رحيما حليما - و﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فقيل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦].

ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب، ساء لوطًا ذلك وضاق بهم ذرعا وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة، ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط، فقال ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] لعلمه أنه لا حق لهم فيهن.

كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله. ولهذا قال قومه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] وأيضًا يريد بعض العذر من أضيافه، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى

العدول إلى قول بعض المفسرين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [هود:٧٨] يعني زوجاتهم، يعني لأن النبي أب لأمته فإن هذا يمنعه أمران: أحدهما: قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [هود:٧٨] يشير إليهن إشارة الحاضر.

ثانيًا: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له، وأيضًا النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار، والمحذور الذي توهموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق، فاشتد الأمر بلوط وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] أي لدافعتكم، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨] فاستلجوا في طغيانهم وسكرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لإهلاكهم، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم، فكان هذا عذابًا معجلا وأنموذجًا لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطا أن يسري بأول الليل بأهله ويلح في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب، فخرج بهم فما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب اللَّه عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد.

وفي هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتلي بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحًا ونفر من الطيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

وفيها وفي قصة إبراهيم جواز التعريض، أما قصة إبراهيم ففي قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] وأما لوط ففي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] والتعريض يكون في الأقوال ويكون في الأفعال، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التي لا بأس بها ويوهم السامع والرائي أمرًا آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة.

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أي فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغي.

ومنها: الحث على السعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر فإن اللَّه يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند اللَّه ولهذا قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] وأكثر الأنبياء يبعثهم اللَّه في أشراف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمكن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك، واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وكذلك نبينا محمد ﷺ بعث في أشرف بيت في قريش وأعزه، وقد رماه قومه بالعداوة البليغة وعقدوا المجالس المتعددة في إبطال قوله ودينه، بل في كيفية الفتك به، ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حدهم

خوفهم من قبيلته، وانظر إلى حالته في تضييقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم - مسلمهم وكافرهم- ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه في القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين.

* * *

قصة شعيب ﷺ

نبأه اللَّه وأرسله إلى أهل مدين، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين، ويغشون في المعاملات وينقصون الناس أشياءهم، فدعاهم إلى توحيد اللَّه ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البخس في المعاملات، وذكرهم الخير الذي أدره اللَّه عليهم، والأرزاق المتنوعة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس في أموالهم، وخوفهم العذاب المحيط في الدنيا قبل الآخرة، فأجابوه ساخرين وردوا عليه متهكمين فقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] أي: فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون فلا ندخل تحت أوامر اللَّه وأوامر رسله، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ [هود: ٨٨] أي: أغناني اللَّه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [هود:٨٨] أي: ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها، إلا وأنا أول تارك لها مع أن اللَّه أعطاني ووسع علي وأنا محتاج إلى المعاملة ولكني متقيد بطاعة ربي، إن أريد في فعلي وأمري لكم إلا الإصلاح أي أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم خوفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ

وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] ثم عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠] فلم يفد فيهم، فقالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود:٩٢] ثم لما رأى عتوهم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٩٣، ٩٤].

فأرسل الله عليهم حرًّا أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلتهم فتنادوا إلى ظلها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم نارًا فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذبين مذمومين ملعونين في جميع الأوقات.

وفي قصة شعيب فوائد متعددة:

ومنها: أن بخس المكاييل والموازين خصوصًا، وبخس الناس أشياءهم عمومًا من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها: أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من

المحتاج. لهذا قال شعيب لقومه ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤] أي بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

ومنها: قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦] فيه الحث على الرضا بما أعطى اللَّه والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

ومنها: فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد اللَّه، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومن هنا تعرف حكمة اللَّه ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها، فللَّه على ذلك أتم الحمد.

ومنها: أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة، فما أبيح له منها فعله، وما منعه الشرع تعين عليه تركه، ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشر الكل مباح، ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا؛ لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردوا عليه أنهم

أحرار في أموالهم لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قال ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥] فمن سوى بين ما أباحه وبين ما حرمه اللَّه فقد انحرف في فطرته وعقله بعدما انحرف في دينه.

ومنها: أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين لقول شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الأنبياء جميعهم بعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا باللَّه لقول شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الداعي إلى اللَّه يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يحفظه أذى الخلق ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخلق كماله للرسل صلوات اللَّه عليهم وسلم، فانظر إلى شعيب ﷺ وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو

ﷺ يحلم عليهم ويصفح ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان ويهون هذا الأمر أن هذا خلق من ظفر به وحازه فقد فاز بالحظ العظيم، وأن لصاحبه عند اللَّه المقامات العالية والنعيم المقيم، ويهونه أنه يعالج أممًا قد طبعوا على أخلاق إزالتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح وقدموها على جميع المهمات عندهم، أفتظن مع هذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء كلا واللَّه إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يذكرون بنعم اللَّه وأن الذي تفرد بالنعم يتعين أن يفرد بالعبادة، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يعد ولا يحصى، ويذكرون بما في مذاهبهم من الزيغ والفساد والاضطراب والتناقض المزلزل للعقائد الداعي إلى تركها، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام اللَّه ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويذكرون بما في الإيمان باللَّه وتوحيده ودينه من المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب.

ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الإحسان إليهم وبذل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم، وسلوك كل سبيل حكمة معهم، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهم فالأهم، وأعظمهم قيامًا بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق محمد ﷺ.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

قد ذكر اللَّه لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام، وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى؛ لأنه عالج فرعون وجنوده، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، وشريعته وكتابه التوراة، هو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ، وله من القوة العظيمة في إقامة دين اللَّه والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره.

وقد ولد في وقت قد اشتد فيه فرعون على بني إسرائيل فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بني إسرائيل ويستحي النساء للخدمة والامتهان، فلما ولدته أمه خافت عليه خوفًا شديدًا؛ فإن فرعون جعل على بني إسرائيل من يرقب نساءهم ومواليدهم، وكان بيتها على ضفة نهر النيل فألهمها اللَّه أن وضعت له تابوتًا إذا خافت أحدًا ألقته في اليم وربطته بحبل لئلا تجري به جرية الماء ومن لطف اللَّه بها أنه أوحى لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فلما ألقته ذات يوم انفلت رباط التابوت، فذهب الماء بالتابوت الذي في وسطه موسى، ومن قدر اللَّه أن وقع في يد آل فرعون وجيء به إلى امرأة فرعون آسية فلما رأته أحبته حبًّا شديدًا، وكان اللَّه قد ألقى عليه المحبة في القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله،

فقالت امرأته: لا تقتلوه قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، فنجا بهذا السبب من قتلهم، وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعي المشكور عند اللَّه، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك.

أما أم موسى فإنها فزعت وأصبح فؤادها فارغا، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته: قصيه وتحسسي عنه، وكانت امرأة فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدي امرأة، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه إلى الطريق لعل اللَّه أن ييسر له أحدًا، فحانت من أخته نظرة إليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعا قالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

ثم ذكر اللَّه في هذه السورة قصة مفصلة واضحة، وكيف تنقلت به الأحوال، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها، واللَّه تعالى ما فصل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر، ولكن في قصته من العبر والفوائد شيء كثير ننبه على بعضها.

ذكر الفوائد المستنبطة نصًّا أو ظاهرًا أو تعميمًا أو تعليلًا من قصة موسى عليه السلام:

منها: لطف اللَّه بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من اللَّه لها برده إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على

ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدرًا بتحريم المراضع عليه وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف اللَّه على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهرًا وتأخذ عليه أجرًا وتسمى أمه شرعا وقدرا وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة.

ومنها: أن آيات اللَّه وعبره في الأمم السابقة إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون، واللَّه يسوق القصص لأجلهم، كما قال تعالى في هذه القصة: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

ومنها: أن اللَّه إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه وأتى به شيئًا فشيئًا بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ اللَّه بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئه منهم، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص لقوله ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته.

ومنها: أن من أعظم نعم اللَّه على العبد تثبيت اللَّه له عند المقلقات والمخاوف؛ فإنه كما يزداد به إيمانه وثوابه فإنه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة، وأما من لم يحصل له هذا الثبات، فإنه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد اللَّه نافذ لابد منه فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع؛ فإن الأسباب والسعي فيها من قدر اللَّه، فإن اللَّه قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع كما فعلت أم موسى؛ فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز؛ فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر اللَّه منه وتاب إليه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين في الأرض ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس.

ومنها: أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة، بل قد يكون واجبًا، كما ساق اللَّه خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذرًا لموسى على وجه الثناء عليه.

ومنها: إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك، بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

ومنها: إذا كان لابد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعًا لما هو أعظم وأخطر، فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه، ومعلوم أنها أرجى للسلامة لا جرم آثرها موسى.

ومنها: فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه، فإن اللَّه لا يخيب من هذه حاله، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدري الطريق المعين إليها قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] وقد هداه اللَّه وأعطاه ما رجاه وتمناه.

ومنها: أن الرحمة والإحسان على الخلق، من عرفه العبد ومن لا يعرفه، من أخلاق الأنبياء وأن من جملة الإحسان الإعانة على سقي الماشية، وخصوصًا إعانة العاجز، كما فعل موسى مع ابنتي صاحب مدين حين سقى لهما، لما رآهما عاجزتين عن سقي ماشيتهما قبل صدور الرعاة.

ومنها: أن اللَّه كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة والافتقار للَّه الذي هو حقيقة كل عبد.

ومنها: أن الحياة والمكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين.

ومنها: أن العبد إذا عمل العمل للَّه خالصًا ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل بإخلاصه وأجره، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة.

ومنها: جواز الإجارة على كل عمل معلوم في نفع معلوم أو زمن مسمى، وأن مرد ذلك إلى العرف، وأنه تجوز الإجارة وتكون المنفعة البضع، كما قال صاحب مدين: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ الآية [القصص: ٢٧]. وأنه يجوز للإنسان أن يخطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولي عليها ولا نقص في ذلك، بل قد يكون نفعًا وكمالا، كما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها: قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين أن يكون قويًا على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكون مؤتمنًا عليه، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما.

ومنها: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧] وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقًا في ذلك.

ومنها: جواز عقد المعاملات من إجارة وغيرها بغير إشهاد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨] وتقدم أن الإشهاد تُحفظ به الحقوق، وتقل المنازعات، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة وكذلك الحقوق.

ومنها: الآيات البينات التي أيد الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠] ثم عودها سيرتها الأولى، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين، ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون وملئه، ومن انفلاق

البحر لما ضربه موسى بعصاه فصار اثني عشر طريقًا وسلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا، وغير ذلك الآيات المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها، وبراهين لمن سمعها، فإنها نقلتها معظم مصادر اليقين، الكتب السماوية، ونقلتها القرون كلها، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر زنديق، وجميع آيات الأنبياء بهذه المثابة.

ومنها: أن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه اللَّه من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أخر أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية اللَّه، وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار اللَّه لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل اللَّه في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة، وأنك لا تجد لسنة اللَّه تبديلا ولا تحويلا، فإن سنن اللَّه في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه، وهذا القسم أيضا مندرج في قدرة اللَّه وقضائه، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة اللَّه في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها، ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعًا ولا قدرًا، وهذه توجب للعبد

أن يجد ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته باللَّه والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه.

القسم الثاني: حوادث معجزات الأنبياء التي تواترت تواترا لا يتواتر مثله في جميع الأخبار وتناقلتها القرون كلها، وكذلك ما يكرم اللَّه به عباده من إجابة الدعوات وتفريج الكربات وحصول المطالب المتنوعة ودفع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية والإلهامات الإلهية والأنوار التي يقذفها اللَّه في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة ما لا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لأعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات.

فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها، وإنما هي حوادث قدرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم الأولون منهم والآخرون، وبها يعرف عظمة البارئ، وأن نواصي العباد بيده، هو أنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل كما يعرف أيضا بالقسم الأول وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل الكون الأرضي للوصول إلى العالم السماوي، ولا سبيل لهم إلى

إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون، وإنما أطلنا الكلام على هذه المسألة وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا لأمرين:

أحدهما: أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود البارئ وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور الغيب، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سوى ذلك، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير، أو يغير شيئًا من أسبابه، وأنه وجد صدفة من غير إيجاد موجد، وأنه آلة تمشي بنفسها وطبيعتها، ليس لها مدبر ولا رب ولا خالق، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهتتهم؛ لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلت عقولهم الحقيقة، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها وأعظمها براهين وآيات، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن..

الأمر الثاني: أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الإسلام، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه يريدون باجتهادهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الإلهية، وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم، فحرفوا لذلك المعجزات، وأنكروا الآيات البينات، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث إذ ضعف إيمانهم باللَّه بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفًا يئول إلى إنكارها وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء اللَّه وقدره، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست

له بصيرة ولا عنده من العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين، بل زادوهم إغراء في مذاهبهم، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون إرجاع النصوص الدينية ومعجزات الأنبياء وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدركات بالحواس، فيا عظم المصيبة ويا شدة الجرم المزوق، ولكن ضعف البصيرة والإعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ومنها: أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إمامًا في الشر وداعيًا إليه كما أن من أعظم نعم اللَّه على العبد أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًّا، قال تعالى في فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١] وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

ومنها: ما في هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبرًا مفصلا مطابقًا وتأصيلا موافقًا، قصه قصًا صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع ولا درس شيئًا عرف به أحوال هذه التفصيلات، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان لينذر به العباد أجمعين. ولهذا يقول في آخر هذه القصة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص:٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾ [القصص:٤٤] ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٩]. وهذا نوع من أنواع براهين رسالته.

ومنها: ذكر كثير من أهل العلم أنه يستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٧، ١٨]، استحباب استصحاب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة في قوله ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨] وأنه يستفاد منها أيضًا الرحمة بالبهائم والإحسان إليها والسعي في إزالة ضررها.

ومنها: أن قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أي إن ذكر العبد لربه هو الذي خلق له العبد وبه صلاحه وفلاحه، وأن المقصود من إقامة الصلاة إقامة هذا المقصود الأعظم، ولولا الصلاة التي تتكرر على المؤمنين في اليوم والليلة لتذكرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعاءه والخضوع له الذي هو روح الذكر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين. وكما أن الذكر هو الذي خلق الخلق لأجله، والعبادات كلها ذكر لله، فكذلك الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شقت، ويهون عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفف عليه الدعوة إلى الله، قال تعالى في هذه القصة: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

ومنها: إحسان موسى عليه السلام على أخيه هارون إذ طلب من ربه أن يكون نبيًّا معه، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن اللثغة لا عيب فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود.

ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم الرفق والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش ولا غلظة، وهذا يحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع؛ وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود، وهو قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

ومنها: أن من كان في طاعة اللَّه مستعينًا باللَّه واثقًا بوعد اللَّه راجيًا ثواب اللَّه، فإن اللَّه معه ومن كان اللَّه معه فلا خوف عليه، لقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٥] ثم علله بقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥] وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٢].

ومنها: أن أسباب العذاب منحصرة في هذين الوصفين ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨] أي كذب خبر اللَّه وخبر رسله، وتولى عن طاعة اللَّه وطاعة رسله ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦].

ومنها: أن قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢] استوعب اللَّه بها الأسباب التي تدرك بها مغفرة اللَّه.

أحدها: التوبة وهي الرجوع عما يكرهه اللَّه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه اللَّه ظاهرًا وباطنًا، وهي تجب ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها.

الثاني: الإيمان، وهو الإقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر اللَّه به ورسوله، الموجب لأعمال القلوب، ثم تتبعها أعمال الجوارح، ولا ريب أن ما في القلب من الإيمان باللَّه وكتبه ورسله واليوم الآخر الذي لا ريب فيه أصل الطاعات وأكبرها وأساسها، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات، يدفع ما لم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينافيه وعدم إصرار القلب عليه، فإن المؤمن ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يجامع المعاصي.

والثالث: العمل الصالح، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان والحسنات يذهبن السيئات.

الرابع: الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها، فمن كمل هذه الأسباب الأربعة فليبشر بمغفرة اللَّه العامة الشاملة. ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه:٨٢] ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد، مع أن فيها فوائد كثيرة للمتأملين.

* * *

قصة يونس ﷺ

وهو من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه اللَّه إلى أهل نينوى- من أرض الموصل- فدعاهم إلى اللَّه تعالى فأبوا عليه، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أبق مغاضبًا لهم، وهم لما ذهب نبيهم ألقي في قلوبهم التوبة إلى اللَّه والإنابة بعدما شهدوا مقدمات العذاب، فكشف اللَّه عنهم العذاب.

والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر في ذهابه عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧] وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات:١٤٠] فركب في سفينة موقرة من الركاب والأحمال، فلما توسطوا البحر شارفت على الغرق ودار الأمر بين أن يبقوا جميعًا فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تخف السفينة فيسلم الباقون، فاختاروا الأخير لعدلهم وتوفيقهم فاقترعوا فأصابت القرعة أناسا منهم، ومنهم يونس ﷺ، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١] أي المغلوبين في القرعة، فألقوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاعًا، لم يكسر له عظمًا ولم يمضغ له لحمًا فلما صار في جوف الحوت في تلك الظلمات نادى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] فأمر اللَّه الحوت أن تلقيه بالعراء، فخرج من بطنها كالفرخ الممعوط من البيضة في غاية الضعف والوهن، فلطف اللَّه به وأنبت عليه شجرة من يقطين فأظلته بظلها

الظليل حتى قوي واشتد، وأمره اللَّه أن يرجع إلى قومه فيعلمهم ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وفي هذه القصة عتاب اللَّه ليونس ﷺ اللطيف وحبسه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس. ومن نعمة اللَّه عليه أن استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

وفيها استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر، فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم.

وفيها أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن اللَّه يشكر له ذلك ويعرفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهذا قال في قصة يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وفيها ما قاله النبي ﷺ: دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج اللَّه عنه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وفيها أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] أي إذا وقعوا فيها لإيمانهم.

قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

وكانا من أعظم أنبياء بني إسرائيل، وجمع اللَّه لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوي أما داود ﷺ فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكا على بني إسرائيل لشجاعته وقوته وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت واستعانوا باللَّه تفوق داود ﷺ على الجميع بالشجاعة العظيمة، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت وحصلت الهزيمة على بقيتهم ونصر اللَّه بني إسرائيل ذلك النصر. نبأ اللَّه داود وأعطاه الحكمة والملك القوي، كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠] وكان قد أعطاه اللَّه قوة في العبادة وبصيرة، ووصفه اللَّه بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧] فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر اللَّه، وبأنه أواب لكمال معرفته باللَّه، وكان اللَّه تعالى قد سخر له الطير والجبال تسبح اللَّه معه، وكان قد أعطي من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين. وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يومًا ويفطر يوما، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يعجب الناظرين، وقد ألان اللَّه له الحديد وعلمه صنعة الدروع الواقية في الحروب، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحلق التي يحصل

فيها الوقاية وهي خفيفة المحمل، وقد عاتبه اللَّه بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملكين بصورة خصمين، فدخلوا عليه وهو في محرابه ففزع منهم؛ لأنهم دخلوا عليه في وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

ثم قص عليه أحدهما القصة فقال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة- والمراد بها المرأة- ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها، وعزني في الخطاب، أي صار خطابه أقوى مني فغلبني، فقال داود ﷺ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥] فمحا اللَّه عنه الذنب وعاد بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك، حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة، وقال اللَّه له ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وأما سليمان بن داود ﷺ فإن اللَّه أعطاه النبوة وورث أباه علمه ونبوته وملكه، وزاده اللَّه ملكا عظيمًا لم يحصل لأحد قبله ولا بعده، سخر اللَّه له الريح تجري بأمره وتدبيره برخاء، أي بسهولة حيث أراد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر اللَّه له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته، يعملون له ما يشاء من

محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد، وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب، وعلمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلم به، ولهذا خاطب الهدهد وراجعه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادت في قومها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فحذرت وأمرت بما يقي من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده، فلهذا ابتسم سليمان ضاحكا من قولها وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبرين، فإن قوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] دليل على ذلك، حتى إنه تفقد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها فقال ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠] وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل وطلب الهدهد، بل قال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠].

ثم توعده لمخالفته لأمره، ولما كان ملكه مبنيًّا على كمال العدل استثنى فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢١: ٢٦] ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة. أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه وأن لها عرشًا عظيمًا، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضا دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار.

هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، وتدين الله بذلك، فقال له سليمان: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨] فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة ملكة سبأ، فلما قرأته عظمته جدًّا وأرعبت منه فزعًا وجمعت رؤساء قومها فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩: ٣١] كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله، قالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل: ٣٢] أي أشيروا علي، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢] قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] أي مستعدون لما تقولين حربًا وسلمًا، وأرجعنا الأمر إلى ما

تختارين، فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم، لكن بصورة حازمة، فقالت سأهدي له هدية حاضرة ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا، فربما أن الهدية كسرت سورته وفلت عزيمته وسالمنا وسالمناه من بعيد، وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر.

فأرسلت أناسًا ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد اللَّه في الإسلام، ثم وصى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب، وقال للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧] وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون، فقال لأهل مجلسه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهابًا وشهرين إيابا.

ثم قال الذي عنده علم من الكتاب ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أعطي الاسم الأعظم الذي إذا دعي اللَّه به أجاب، وأنه دعا اللَّه فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي سخرها اللَّه لسليمان؛ أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة.

وعلى كل فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم، ولهذا لما رآه مستقرًّا عنده حمد الله على ذلك، قال ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] فقال لمن حوله ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١] أي غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١] وكان قد مدح له رأيها وعقلها فأحب أن يقف على الحقيقة، فلما جاءت قيل ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] وعرض عليها، فلما رأته عرفته ورأت ما فيه من التنكير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] لم تقل هو لما فيه من التغيير، ولم تنف أنه هو لما كانت تعرفه، فأتت بلفظ صالح للأمرين، فعرف سليمان رجاحة عقلها. ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه أننا أخبرنا عن عقلها وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ، فإنها تقول ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ [النمل: ٤٢] عن ملك سليمان، وأنه ملك نبوة ورساله وقوة هائلة من قبل هذه الحالة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] مذعنين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره، فكأنه قيل مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر، وإنما يضر من عبده.

حاصل الجواب قوله ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣] أي العقائد التي نشأت عليها، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمن عليه باتباعه.

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري، لأن الزجاج شفاف، فلما قيل لها ادخلي الصرح. فرأته لجة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] فأسلمت للّه واتبعها قومها، فيقال إن سليمان تزوجها، فاللّه أعلم.

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم اللّه له وبلغه أنهم باجتماعهم بالإنس يعلمونهم السحر فجمعهم وتوعدهم وأخذ كتبهم ودفنها، فلما توفي سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا: إن ملك سليمان مشيد على السحر، واستخرجوا الكتب التي دفنها، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان، وأن سليمان ساحر، وروج ذلك طائفة من اليهود، فبرأ اللّه سليمان من هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم الضارة فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بتعليم السحر والرضا به ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية.

وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل ويذكرهم بأوصافهم الجميلة وينزههم عما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم.

وكان اللّه قد ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسدًا، أي شيطانًا عتابًا له على بعض الهفوات وإرجاعًا له إلى كمال الخضوع لربه، ولهذا قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] إلى اللّه بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه فقال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ

﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] فاستجاب اللَّه له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم.

وقد أثنى اللَّه على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي دخلت الغنم بستانهم ليلا فرعت زرعه وأشجاره؛ فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث، لظنه أن الذي تلف من الحرث يقابل قيمتها، ثم رفعت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقي والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بدرها ولبنها ودهنها وصوفها ومغلها مقابلة ما كان بصدد أن ينتفع بحرثه في هذه المدة، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث؛ فلهذا قال تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى، فادعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى، وأن الذي سلم من الذئب ابنها، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت: بل الذئب أكل ابن الكبرى فتحاكما إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها. رأى أن يحكم به للكبرى اجتهادًا ورحمة بها لكبرها، وأن الصغرى في مستقبل عمرها سيرزقها اللَّه ولدًا بدله.

ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. فرضيت الكبرى. وقالت الصغرى لما دار الأمر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها: هو ابنها يا نبي اللَّه، فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعي الذي هو من أقوى البينات أنه ليس ابنًا للكبرى لكونها رضيت بشقه وإتلافه، وأن دعواها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها، فقضى به سليمان للصغرى، ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال، من الفهم الذي يخص اللَّه به من يشاء.

فصل

في بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن اللَّه يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى اللَّه الذي تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به، قال بعدها ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

ومنها: أن قوله ﴿ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] مدح عظيم من اللَّه لهذين الوصفين، قوة القلب والبدن على طاعة اللَّه والإنابة باطنًا وظاهرًا إلى اللَّه المستلزمة لمحبته وكمال معرفته، وأن هذين الوصفين

للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم، والثناء من اللَّه عليهما يقتضي الحث على جميع الأسباب التي تعين على القوة والإنابة؛ وأن يكون العبد رجاعًا إلى اللَّه في حال السراء والضراء، وفي جميع الأحوال.

ومنها: ما أكرم اللَّه به نبيه داود ﷺ من حسن الصوت ورخامته، وأن الجبال والطيور تسبح اللَّه معه وتجاوبه، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

ومنها: أن من أكبر نعم اللَّه على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب وفي الخصومات والمشاحنات. كما قال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

ومنها: كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنته إياهم وابتلائهم بما يزيل عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى كما جرى لداود وسليمان.

ومنها: أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن اللَّه؛ فإن اللَّه أمر بطاعتهم مطلقًا، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وقد يجري منهم أحيانًا بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات، ولكن اللَّه تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

ومنها: أن داود في أغلب أوقاته ملازمًا محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق فقد أتم القيام بحق اللَّه وحق عباده.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس، خصوصًا الحكام والرؤساء، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود، فإنه ما غضب منهما حين جاءاه بغير استئذان ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني أو يا ظالم ونحوه أو يا باغي لقوله ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢].

ومنها: أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد اللَّه إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢] بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يريد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر والإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: إكرام اللَّه لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المآب، فلا يتوهم أحد أن ما جرى منهما منقص لدرجتهما عند اللَّه، وهذا من

تمام لطفه بعباده المخلصين؛ لأنه إذا غفر لهم وأزال عنهم أثر الذنوب، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلوب الخلق، وما ذلك على فضل الكريم بعزيز.

ومنها: أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل اللَّه وخواص خلقه، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس.

ومنها: أن سليمان يعد من فضائل داود ومن منن اللَّه عليه، قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص:٣٠] وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان.

ومنها: كثرة خير اللَّه وفضله على عبيده الأخيار يمن عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ثم يثني عليهم بها ويرتب عليها من الثواب أنواعًا منوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.

ومنها: أن سليمان قدم محبة اللَّه على محبة كل شيء، وأتلف الخيل التي ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشئوم فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها: أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد - التي ألهته عن طاعة اللَّه - سخر اللَّه له الريح والشياطين: أن من ترك شيئًا للَّه عوضه اللَّه خيرًا منه.

ومنها: أن تسخير الشياطين وتسخير الريح على الوجه الذي سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان، ولهذا لما رأى النبي ﷺ أن يأخذ الشيطان الذي تفلت عليه ليلة فيربطه في سارية المسجد قال: ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته.

ومنها: أن سليمان كان ملكًا نبيًّا مباح له أن يفعل ما يريد، ولكنه لكماله لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون له إرادة مستقلة، بل إرادته تابعة لمراد اللَّه منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعًا للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

ومنها: أن اللَّه أعطى سليمان ملكًا عظيمًا، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل تسخير الريح تبعًا لأمره، وتسخير الشياطين، وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات، وقد أعطاها اللَّه من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص اللَّه علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ الخلق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان.

ومنها: أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين ولا يكتفوا بمجرد السؤال، بل يختبرونهم

ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم، كما فعل سليمان مع ملكة سبأ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته ولم يكتف بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة، وتمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون.

* * *

قصة أيوب عليه السلام

كان أيوب من أنبياء بني إسرائيل ومن الأصفياء الكرام، وقد ذكره اللَّه في كتابه وأثنى عليه بالخصال الحميدة عمومًا، وبالصبر على البلاء خصوصًا، فإن اللَّه تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله، ثم بجسده فأصابه من البلاء ما لم يصب أحدًا من الخلق، فصبر لأمر اللَّه ولم يزل منيبًا للَّه.

ولما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فقيل له ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل ففعل ذلك فأذهب اللَّه ما في باطنه وظاهره من البلاء، ثم أعاد اللَّه له أهله وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئًا كثيرًا، وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين وعبرة للمعتبرين.

وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة فخفف اللَّه عنه وعنها، وقيل له: خذ بيدك ضغثا حزمة حشيش أو علف أو شماريخ أو نحوها فيها مائة عود فاضرب به ولا تحنث، أي ينحل بذلك يمينك. وفي هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا، وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي لابد من وفائه، وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك؛ لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك.

قصة الخضر مع موسى ومحلها في أثناء قصص موسى

وذلك أن موسى ﷺ قام ذات يوم في بني إسرائيل مقامًا عظيمًا علمهم فيه علومًا جمة، وأعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي اللَّه، هل يوجد أو هل تعلم في الأرض أحدًا أعلم منك؟ فقال لا؛ بناءً على ما يعرفه، وترغيبًا لهم في الأخذ عنه، فأخبره اللَّه أن له عبدًا في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى وإلهامات خارجة عن الطور المعهود، فاشتاق موسى إلى لقيه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من اللَّه أن يأذن له في ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوتًا وقيل له: إذا فقدت الحوت فهو في ذلك المكان، فذهب فوجده، وكان ما قص اللَّه من نبئهما في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢].

وفي هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون اللَّه ونذكر المهم منه:

فمنها: ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى رحل في طلبه مسافة طويلة ولقي في ذلك النصب، وترك الإقامة عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة في العلم بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالا بالتعليم فقط، بل يتعلم ليعلم.

ومنها: جواز أخذ الخادم في السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى ﷺ.

ومنها: أن المسافر بطلب العلم أو الجهاد أو غيرهما من أسفار الطاعة، بل وكذلك غيرهما إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين مراده، فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره من فوائد الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة والإعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده، مع أنه كان في الغالب إذا أراد غزوة ورى بغيرها تبعًا للمصلحة في الحالتين.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، وكذلك النقص، لقول فتى موسى ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف: ٦٣].

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقًا لقوله ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ [الكهف: ٦٢].

ومنها: أنه ينبغي أن يتخذ الإنسان خادمًا ذكيًّا فطنًا كيسا ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعا؛ لأن ظاهر قوله ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أنه للجميع ومنها أن المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعي، وأن ما وافق رضا اللَّه يعان عليه ما لا يعان على غيره لقوله ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ [الكهف: ٦٢]

والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشتك منه مع طوله.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيا، بل هو عبد صالح عالم ملهم؛ لأن اللَّه ذكره بالعلم والعبودية الخاصة والأوصاف الجميلة، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول، وأما قوله في آخر القصة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾ [الكهف: ٨٢] فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، وذلك يكون لغير الأنبياء، قال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧].

ومنها: أن العلم الذي يعلمه اللَّه للعبد نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجده، وعلم إلهي لدني يهبه اللَّه لمن يمن عليه من عباده، لقوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فالخضر أعطي من هذا النوع الحظ الأوفر. ومنها التأدب مع المعلم والتلطف في خطابه لقول موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي أم لا، وإظهار حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم، فلا أنفع للمتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم درجات، فإن موسى من أكابر أولي العزم من

الرسل الذين منحهم اللَّه وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه .

ومنها: أنه يتعين إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل اللَّه ورحمته، والاعتراف بذلك وشكر اللَّه عليه لقوله ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة لقوله ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ومنها: أن من ليس له صبر على صحبة العالم، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم فإنه قاصر ليس بأهل لتلقي العلم، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص.

ومنها: أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علما وبمنافعها وثمراتها ونتائجها، فمن لا يدري هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨].

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة على الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلة على مشيئة اللَّه لقوله ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩] وأن العزم على الشيء ليس بمنزلة فعله، فموسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يخبر المتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرًا أو نهاه عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التي لا تتعلق بالموضوع.

ومنها: جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ، لا في حق اللَّه ولا في حق العباد، إلا إن ترتب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناسي لقوله ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣].

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم، فإن هذا داع إلى النفور، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء، فإن موسى ﷺ أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدئ.

ومنها: فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًّا، وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه اللَّه الحقيقة، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره.

ومنها: القاعدة الكبيرة الأخرى، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه اللَّه في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به؛ لقوله ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علل أفعاله بالجدار بقوله ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنها: استعمال الأدب مع اللَّه حتى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وأما الخير

فأضافه إلى الله بقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] وقال إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠] وقالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠] مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته، بل يفي له بذلك حتى لا يجد للصبر محلا، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

* * *

قصة ذي القرنين

وكان ذو القرنين ملكا صالحًا، وقد أعطاه اللَّه من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره، فذكر اللَّه من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله؛ ولهذا قال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف:٨٣] أي من بعض أخباره ومن المعلوم أن ما قصه اللَّه في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سببا يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح المخضع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطيها، فما كل أحد يعطى الأسباب النافعة، ولا كل من أعطيها يتبعها ويعمل بها.

أما ذو القرنين فإنه تم له الأمران أعطي سببًا فأتبع سببا، فغزا بجيوشه الجرارة أدنى إفريقية وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] أي رآها في رؤية العين كأنها تغرب في البحر، والبحر لونه أسود كالحمئة، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخف والحافر من بلاد إفريقية، ووجد في ذلك المحل وتلك الأقطار قومًا منهم المسلم والكافر والبر والفاجر؛ بدليل قوله: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦] إما أن القائل له نبي من أنبياء اللَّه أو أحد العلماء، أو أن المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيرًا قدرًا، وإلا فمن

المعلوم أن الشرع لا يسوي بين الأمرين المتفاوتين في الإحسان والإساءة فقال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨] وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح وعلى حسن تدبيره ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩] أي ثم عمل بالأسباب التي أوتيها بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الأرض قطرًا قطرًا حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر المحيط الهادي، وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] أي لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، أي وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوي إلى الغياض والغيران والأسراب منقطعين عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف اللَّه.

والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد، ثم كر راجعًا وأتبع سببا يمكنه من مناهج البلاد وتخضيع العباد قاصدًا نحو الشمال ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣] أي بلغ محلا متوسطًا بين السدين الموجودين منذ خلق اللَّه الأرض، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة، وهي الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهي في بلاد الترك على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنما اختلفوا هل هي سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك في أذربيجان أم سلاسل جبال التاي أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا وهو الظاهر.

وعلى الأقوال كلها فوجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قومًا لا يكادون يفقهون قولا من بعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤] وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٤، ٩٥] من القوة والأسباب والاقتدار ﴿خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥] أي أن هذا بناء عظيم يحتاج في الإعانة عليه إلى مساعدة قوية في الأبدان ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] ولم يقل سدًّا؛ لأن الذي بني فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السدين الطبيعيين، أي بين سلاسل تلك الجبال، فدبرهم على كيفية آلاته وبنيانه فقال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] أي اجمعوا لي جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولا تدعوا من الموجود شيئًا واركموه بين السدين، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تلولا عظيمة موازنة للجبال؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦] أي الجبلين المكتنفين لذلك الردم ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلا هائلا متصلا بالسدين، فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أي يصعدوا ذلك الردم ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٧، ٩٨] أي ربي الذي وفقني لهذا العمل الجليل

والأثر الجميل، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: ٩٨] أي هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل، فإذا جاء ذلك الأجل قدر اللَّه للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أي من كل مكان مرتفع سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أي يسرعون فيها غير مكترثين ولا حاجز يحجزهم، فلفظة ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ تشمل جميع المواضع والأقطار، سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها، وإنما نص اللَّه على المرتفعات؛ لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى.

وقد ورد في صفاتهم أحاديث في الصحيحين تؤيد ما في هذه الآيات من صفاتهم وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثارًا لا خطام لها ولا زمام شوشت أفكار أكثر الناس ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة ودع ما سوى ذلك؛ فإن فيه الهدى والرشد والنور.

* * *

قصة عيسى وأمه وزكريا ويحيى عليهم السلام

كانت زوجة عمران - وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوي المقامات العالية عندهم - نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما في بطنها لبيت المقدس يكون خادمًا لبيت اللَّه معدًّا لعبادة اللَّه ظنًّا أن الذي في بطنها ذكر، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى اللَّه شاكية إليه الحال ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي أن الذكر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] فحصنتها باللَّه من عدوها هي وذريتها، وكان هذا أول حفظ وحماية من اللَّه لها، ولهذا استجاب اللَّه لها في هذه الدنيا ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي أن اللَّه جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] فجمع اللَّه لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم، فاقترعوا وألقوا أقلامهم، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، قال أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا، قالت: ﴿هُوَ مِنْ

عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي رزقه تعالى يأتي بطرق معهودة وبطرق أخرى، والله على كل شيء قدير.

فحين رأى هذه الحالة ذكَّره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولدًا يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده في بني إسرائيل، في تعليمهم وهدايتهم ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] أي بعيسى ﷺ ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أي عظيما عند الله وعند الخلق لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة، والأعمال الصالحة ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أي ممنوعًا بعصمة الله وحفظه ووقايته من مواقعة المعاصي، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات وهذا غاية كمال العبد، فتعجب زكريا من ذلك وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٨، ٩] وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كبرك، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ١٠] تدلني على وجود الولد، قال: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وهذه آية كبرى يمنع من الكلام الذي هو أسهل ما يقدر عليه الإنسان، وهو سوي فلا يقدر أن يكلم أحدًا إلا بالإشارة ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه وتحميده، فحينئذ تمت له البشارة من الله وعرف أنه لابد أن يكون، فولدت زوجته يحيى، وأنشأه الله نشأة عجيبة، فتعلم وهو صغير، ومهر في العلم وهو

صغير؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] حتى قيل إن اللَّه أيضًا نبأه وهو صغير، وكما أعطاه اللَّه العلم العظيم فقد منَّ عليه بأكمل الصفات فقال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٣: ١٥] ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق اللَّه وحقوق والديه وحقوق الخلق، وأن اللَّه سيحسن له العواقب في أحواله كلها.

وأما مريم فإنها انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا متجردة لعبادة ربها ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] لئلا يشغلها أحد عما هي بصدده، فأرسل اللَّه لها الروح الأمين جبريل في صورة بشر سوي من أكمل الرجال وأجملهم فظنت أنه يريدها بسوء، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨] فتوسلت باللَّه في حفظها وحمايتها، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى اللَّه فكان هذا الورع العظيم منها في هذه الحالة التي يخشى منها الوقوع في الفتنة، ورفع اللَّه بذلك مقامها ونعتها بالعفة الكاملة، وأنها أحصنت فرجها، فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:١٩: ٢١] به وبك وبالناس ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١] فلا تعجبي مما قدره وقضاه ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ﴾ [مريم:٢٢] أي ابتعدت به عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم:٢٢] خشية الاتهام والأذية منهم ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ [مريم:٢٣] أي

ألجأها المخاض أي الطلق ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣] لما تعرفه مما هي متعرضة له من الناس، وأنهم لا يصدقونها، ولم تدر ما اللَّه صانع لها ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ [مريم:٢٤] الملك ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم:٢٤] وكانت في مكان مرتفع ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠] ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] أي نهرًا جاريًا ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥] من دون أن تحوجك إلى صعود ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥] أي طريا ناضجا ﴿فَكُلِى﴾ [مريم:٢٦] من الرطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾ [مريم:٢٦] من السري ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم:٢٦] بولادة عيسى، وليذهب روعك وخوفك ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] أي سكوتا، وكان معهودًا عندهم أنهم يتعبدون بالصمت في جميع النهار؛ ولهذا فسره بقوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦] فاطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد.

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت شأنها وقويت بعد الولادة ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم:٢٧] علنًا غير هائبة ولا مبالية، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها جزموا أنه من وجه آخر فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم:٢٧:٢٩] كما أمرت بذلك، فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩] فقال وهو في تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى

بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠: ٣٣] فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات اللَّه وأدلة رسالته، وأنه عبد اللَّه لا كما يزعمه النصارى، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من السوء؛ لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدقها الناس، ولكن هذا الكلام من عيسى، وهو في المهد جلى كل ريب يقع في القلوب، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام:

قسم آمنوا به وصدقوه في كلامه هذا وفي الانقياد له بعد النبوة، وهم المؤمنون حقيقة.

وقسم غلوا فيه وهم النصارى، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب تعالى اللَّه عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وقسم كفروا به وجفوه - وهم اليهود - ورموا أمه بما برأها اللَّه منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧].

ولما أرسله اللَّه إلى بني إسرائيل آمن به من آمن، وكفر به من كفر، وجعل يريهم الآيات والعجائب، فكان يصور الطين فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللَّه، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن اللَّه وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداؤه وأرادوا قتله، فألقى اللَّه شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم، ورفعه اللَّه إليه وطهره من قتلهم، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالإثم العظيم والجرم الجسيم، وصدقهم

النصارى أنهم قتلوه وصلبوه ونزهه اللَّه من هذه الحالة فقال:﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧] وقد قام عيسى في بني إسرائيل فبشر وأعلن برسالة محمد ﷺ فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧] كما قالوا في عيسى ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

وفي هذه القصة من الفوائد أمور:

منها: أن النذر ما زال مشروعًا في الأمم السابقة، والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح النافذ منه وللباطل فقال: «**من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه، ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه**»(١).

ومنها: أن من نعمة اللَّه على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار؛ فإن المربي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أمر اللَّه المربين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوئ الأخلاق.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء فإن اللَّه كرم مريم بأمور: يسر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها، وأكرمها بأن كان رزقها يأتيها من اللَّه بلا سبب، وإكرمها بوجود عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمئن قلبها، ثم بكلامه في المهد، فهذه الأخيرة جمعت كرامة ولي ومعجزة نبي.

---

(١) رواه البخاري عن عائشة.

ومنها: الآيات العظيمة التي أجراها اللَّه على يد عيسى بن مريم من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ونحوهما.

ومنها: ما أكرم اللَّه به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصارًا في حياته وبعد مماته في بث دعوته والنصر لدينه؛ ولذلك كثر تابعوه، ولكن منهم المستقيم وهو الذي آمن به حقيقة وآمن بجميع الرسل، ومنهم المنحرف وهم الذين غلوا فيه، وهم جمهور من يدعي أنه من أتباعه وهم أبعد الناس عنه.

ومنها: أن اللَّه أثنى على مريم بالكمال بالصديقية وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع للَّه، وأنه اصطفاها وفضلها على نساء العالمين.

ومنها: أن إخباره ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

[آل عمران: ٤٤]

* * *